سيبويه

لمرسناذ أحمد أحمد بدوى

المدرس بكلية دار العلوم

١ ـ حياته

اسمه ونسبه :

يعنى الباحث كثيراً بدراسة نسب من يترجم له ، إذا كان من وراء هذه الدراسة نور يضيء جوانب البحث ، أو يوضح نتيجة من النتائج ، أو يفسر أثراً من الآثار ، فقد يكون فى أسرة من الأسر توارث لنوع خاص من أنواع المعرفة ، أو استعداد للون من ألوان الثقافة والفنون ، ولكننا نبحث فى نسب سيبويه فلا نجد شيئاً يلقى بصيصا من الضوء على حيـــاة آبائه بل لا نعرف من هؤلاء الآباء إلا اثنين هما أبوه عثمان وجده قنبر ، وقنبر اسم عربى قح هو اسم جد الشاعر الحكم بن معمر ، وأرجح أن ذلك هو ضبط اسم جده ، لا قنبره كما فى كتاب نزهة الألباء فى الطبعة القديمة التى عثرت عليها ، ويدل على ذلك رثاء الزمخشرى له كما سنرويه بعد ، فان الشعر لا يسمح بالنطق بقنبرة وليست القاف مفتوحة كما ضبطت فى كتاب معجم الأدباء ، وسلفستر دى ساسى (ص ٤٠) وقد ترك ابن خلكان ضبط هذا الاسم مع شدة عنايته بضبط الأسماء ، ولعله لم يصح عنده ضبط يذكره . واكتفاء المؤرخين بهذين الاسمين من سلسلة نسبه ، قد يكون من حقنا أن نستنبط منه أن أباه وجده هما اللذان دخلا فى الاسلام ، وسميا بأسماء عربية ، ولم يكن لأجداده الفرس من الخطر مايدفع المؤرخين إلى حفظ أسمائهم ،

وسيبويه وأسرته موال لبنى الحارث بن كعب ، أو لآل الربيع بن زياد ، أو آل ولاؤه لآل الربيع بعد بنى الحارث .

أما أمه فكانت فارسية كذلك بدليل أنها لقبت ابنها هذا اللقب الفارسى الصريح الذى عرف به فى التاريخ ، وبدليل هجاء بشار له بأنه ابن الفارسية كما سيأتى ، وقد صار لقبه أشهر من اسمه وهو عمرو ، وكنيته وهى أبو بشر أو أبو الحسن ، ولا أريد أن أطيل فى معنى هـذا اللقب ، فيكاد مؤرخو العرب يجمعون على أن معناه رائحة التفاح ، ثم يعللون سبب هذا التلقيب ، مدعين حينا أنه كان جميلا ذا وجنتين كالتفاح ، وحينا أنه كان جميل الرائحة حتى إن من يقربه كان يشم منه رائحة التفاح ، وهذه تعليلات لا قيمة لها ولا داعى إليها ، لأن الأسماء لا تعلل - كما يقولون - ويقول المستشرق Huart فى كتابه La Littérature arabe الأدب العربى إن هذه الصيغة قد يكون مدلولها التصغير فى اللغة الفارسية ، فيكون معنى اللقب إذاً : التفاحة الصغيرة ، والرأى فى ذلك للعلماء باللغة الفارسية . وسيبويه هو الطريقة التى ينطق بها هذا النوع من الأسماء المنتهية بويه كابن خالويه ونفطويه ، أما نطقه فى لغته الأصلية فسيبويه بفتح الياء كما ضبطه ابن خلكان وصاحب إعجام الأعلام ، وبكسرها كما ضبطه إيوارت ، وقـــد تعب المستشرق الفرنسى دى ساسى فى ضبط هذه الكلمة وبيان معناها فى كتابه An. Gra. Ara. والمرجع أيضا علماء اللغة الفارسية .

سيبويه إذاً فارسى صريح من ناحية أمه وناحية أبيه ، وربما كانت اللغة الفارسية تحيا نوعا من الحياة فى منزله ، وعلى لسان أمه وأبيه ، ولعله كان على علم قليل أو كثير بهذه اللغة ، وهـــذا مالا أستطيع إثباته وإن كنت أستأنس له بهذا الفصل الذى عقده فى كتابه للألفاظ المنقولة عن الأعجمية ، وإطراد الإبدال فى حروف الكلمات الفارسية عند تعريبها لوجود حروف فى الفارسية لا نظير لها فى العربية .

كان كثير من حملة العلم ودراسى اللسان العربى فى تلك العصور — من

الفرس . والمؤرخون يعللون ذلك بعلل كثيرة ، كان من جملتها ولا ريب تطلع الشبان ذوي المواهب إلى نيل المناصب السامية فى دولة كانت تعتمد على سواعد الفرس ، ولقد كان هذا الباعث - بدون شك - واحداً من بين الأسباب التى حفزت سيبويه إلى دراسة اللغة العربية والتبحر فيها ، كما يدل على ذلك رحلته إلى بغداد فانها كانت رحلة يريد من ورائها المجد المادى والأدبى ، كما سنرى .

مولده :

لا سبيل إلى تحديد سنة ميلاده ، فقد أغفلها المؤرخون جميعا ، ولا محيص لنا من الفرض والتخمين للوصول إلى معرفة تلك السنة على وجه التقريب ، ذلك أن التاريخ يذكر من أساتذة سيبويه عيسى بن عمر الثقفى ، الذى يكاد المؤرخون يجمعون على أنه توفى سنة تسع وأربعين ومائة ، ويقول ياقوت فى كتابه معجم الادباء : « وما يكون قد أخذ عنه إلا وهو يعقل ، ولا يعقل حتى يكون بالغا ، فاذا حسبنا لبلوغ سيبويه سن الرشد أربعة عشر عاما ، كان لنا أن نضع ميلاد سيبويه فى العام الخامس والثلاثين بعد المائة ، ويكون عيسى بن عمر ، من أوائل الاساتذة الذين أخذ عنهم سيبويه .

أين ولد هذا النابغة ؟ يجهل التاريخ كذلك مكان هذه الولادة ، فهو لا يعرف البلد الذى رآه للمرة الاولى ، ولا يكاد يذكره إلا وهو طالب طالب للعلم ، يغدو إلى مجالسه فى مساجد البصرة ، وبعض المؤرخين يروى أنه ولد بالبيضاء التى يصفها ياقوت فى معجم البلدان بأنها مدينة مشهورة بفارس ، وأنها أكبر مدينة فى كورة إصطخر ، وإنما سميت بالبيضاء لان لها قلعة تبين من بعد ويرى بياضها ، وكانت معسكرا للمسلمين ، يقصدونها فى فتح إصطخر ، وهى مدينة تقارب إصطخر فى الكبر ، وهى تامة العمارة خصبة جداً ، ينتفع أهل شيراز بميرتها ، وبينها وبين شيراز ثمانية فراسخ ، وينسب اليها كثير من العلماء المبرزين ، عد ياقوت منهم جملة صالحة .

أرجح هذه الرواية ، واستأنس لهذا الترجيح بما سنراه بعد من أنه رحل

بعد إخفاقه فى بغداد إلى فارس ، عائدا ، فى أغلب الظن إلى مسقط رأسه ، فوافاه الأجل بها أو قبل أن يصل إليها فى شيراز .

نشأته :

وإذا كان التاريخ يجهل بالتحديد منبته ، فهو يجهل كذلك نشأته الأولى ، ولا يعرف ماشداه الطفل من العلوم ، ولا ما أخذه من ألوان الثقافة ، وأغلب الظن أنه كان كنايته هذا العصر ، يقرءون القرآن ، ويحفظون شعر العرب وشيئا من السيرة النبوية وتاريخ الغزوات ، ثم يمضى من يريد التخصص فى مادة فيما خصص نفسه له .

ويروى كثير من المؤرخين ، أن سيبويه لم يطلب النحو أول ماطلب ، بل كان يطلب الفقه والآثار ، أى الحديث وتاريخ الغزوات . قال نصر بن على ، « كان سيبويه يستملى على حماد بن سلمة ، فقال حماد يوما : « قال صلى الله عليه وسلم : « ليس أحد من أصحابى إلا وقد أخذت عليه ، ليس أبا الدرداء » فقال سيبويه : « ليس أبو الدرداء » ، فقال له حماد : « لحنت ، ليس أبا الدرداء » ، فقال سيبويه : « لاجرم ، لأطلبن علما لاتلحننى فيه أبدا » . وطلب النحو ، ليس فى هذه القصة شىء من الغرابة ، فقد يعن للمرء وهو يدرس مايشعره بالنقص فى ثقافته ، فيتجه لاستكمال هذا النقص ، وقد تظهر موهبته المكونة فى تلك المادة الجديدة ، فينبغ ويمتاز ، ومما لاريب فيه عندى أن سيبويه لم يكتف بالنحو والفقه والآثار بل ضرب فى كل علم من علوم عصره بسهم . قال ابن عائشة : « كنا نجلس مع سيبويه النحوى ، فى المسجد ، وكان شابا ، نظيفا جميلا ، قد تعلق من كل علم بسبب ، وضرب فى كل أدب بسهم ، مع حداثة سنه وبراعته فى النحو ، فبينا نحن ذات يوم إذ هبت ريح ، فأطارت الورق فقال لبعض أهل الحلقة ، انظر أى ريح هى ؟ وكان على منارة المسجد تمثال فرس ، فنظر ثم عاد ، فقال : « مائبتت على حال » ، فقال سيبويه : « العرب تقول

فى مثل هذا : قد تذاءبت الريح ، وتذاءبت ، أى فعلت فعل الذئب ، وذلك أنه يجىء من هاهنا وهاهنا ، ليخيل ، فيتوهم الناظر أنه عدة ذئاب » . وإذا صحت هذه الرواية ، وهى ليست بعيدة الصحة ، دلتنا على منهج سيبويه التعليمى ، واعتماده على التطبيق العملى فيما يلقيه من القواعد والنظريات ، وإن عليه باللغة يدلنا عليه كثير من فصول كتابه ولا سيما أبواب الصرف ففيها من غريب الكلمات مايدلنا على محصول كبير فى اللغة :

أساتذته :

أما العلم الذى كرس له معظم وقته ، ونبغ فيه وشهر به ، فهو علم النحو وكتابه فيه أول كتاب وصل إلينا فى ذلك العلم ، ويحفظ التاريخ من أساتذته فى تلك المادة سيد أهل الأدب وصاحب العقلية الجبارة الخليل بن احمد ، وهو أعظم أساتذته أثراً فيه ، وأكثرهم اتصالا به ، وأخذا عنه ، وكان سيبويه يعد أبرع تلاميذ الخليل فى النحو ، وأوثق من حمل عنه ، ومنهم عيسى بن عمر الثقفى ، مؤلف كتابى الاكمال والجامع فى النحو ، وهو الذى أخذ عن أبى عمرو بن العلاء تليذ يحيى بن يعمر حد تلامذة أبى الأسود ، ومنهم أبو زيد الأنصارى تليذ أبى عمرو بن العلاء أيضا ، وقد عاش أبو زيد هذا بعد سيبويه بنيف وثلاثين سنة ورأى المجد الذى أدركه تليذه بتأليف الكتاب ، وقد نقل عنه سيبويه فيمن نقل ، فكان الأستاذ يقول كالمفتخر بذلك : كان سيبويه غلاما يأتى مجلسى وله ذؤابتان فاذا سمعته يقول : حدثنى من أثق بعربيته فانما يعنينى ، ومنهم يونس تليذ ابن العلاء أيضا ، وقد عاش كذلك بعد سيبويه . ويروى أنه لما مات سيبويه قيل ليونس بن حبيب : إن سيبويه قد ألف كتابا فى ألف ورقة من علم الخليل ، قال يونس ، ومتى سمع سيبويه هذا كله من الخليل ؟ ! جيئونى بكتابه ، فلما نظر فيه ، ورأى كل ماحكى فقال : يجب أن يكون هذا الرجل قد صدق عن الخليل فى جميع ماحكاه عنه كما صدق فيما حكاه عنى ويخيل إلى أن الصلة لم تكن وثيقة بين سيبويه وأستاذه

يونس كما نلمس ذلك فى تلك الرواية وفى رواية أخرى نقلها ياقوت . ومن أساتذته فى اللغة أبو الخطاب الأخفش الكبير ، أستاذ أبى عبيدة معمر بن المثنى ، وهو غير أبى الحسن الأخفش تلميذ سيبويه ، وإن كان أكبر من أستاذه سنا ، وروى سيبويه اللغه أيضا عن أبى عمر بن العلاء كما ذكر ذلك ياقوت فى معجم (حـ ١١ ص ١٦٠).

زملاؤه :

ويذكر التاريخ من زملائه ثلاثة نبغوا على يد الخليل بن احمد : هم النضر ابن شميل ، وكان أبرع تلاميذ الخليل فى اللغة ، ومؤرج العجل وكان أبرعهم فى الشعر واللغة ، وعلى بن نصر ، وكان أبرعهم فى الحديث .

مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة :

نشأ سيبويه بالبصرة ، وأخذ علم النحو عن أعظم علمائها قدرا ، ومعروف أن البصرة قد سبقت الكوفة فى هذا اللون من الدراسة وانفردت به ، حتى أخذ هذا العلم عن أبى عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر الثقفى — أبو جعفر الرؤاسى ، وعنه وعن غيره من علماء البصرة أخذ الكسائى والفراء معاصرا سيبويه ، وقد بدأت مدرسة الكوفة فى النحو منذ أنشأها الرؤاسى تناظر مدرسه البصرة . يقول الأستاذ أحمد أمين فى كتابه ضحى الاسلام (حـ ٢ ص ٢٩٤) : بدأ الخلاف هادئا بين الرؤاسى فى الكوفة والخليل فى البصرة ، ويظهر أن العصبية العلمية بين المدرستين كانت مؤسسة على العصبية السياسية التى ظهرت بين البلدين ، فقد كان الكوفيون يميلون فى الجملة سياسيا إلى دولة بنى العباس بينما كان البصريون منصرفين عنها ، (وقد ظهر فى البصرة محمد بن الحسن العلوى الملقب بالنفس الذكية ، والذى حاربه المنصور ، وكان هو المرشح للخلافة قبل أن يأخذها العباسيون) .

أهم الفروق بين المدرستين

وربما كان أهم الفروق الأساسية بين المدرستين أن مدرسة البصرة رأت

أن أهم غرض وضع قواعد عامة للغة فى الرفع والنصب والجر والجزم ونحوها ، تلتزمها وتريد أن تسير عليها فى دقة وحزم ، وإذا كانت اللغات دائما لاتلتزم القواعد العامة دائما ، بل فيها مسائل لايمكن أن تجرى على القاعدة وخصوصا اللغة العربية التى هى لغات قبائل متعددة تختلف فيما بينها اختلافا كبيرا ... أراد البصريون ، تمشياً مع غرضهم أن يهدروا الشواذ ، فاذا ثبت صحتها قالوا إنها تحفظ ، ولا يقاس عليها ، بل جروا على أكثر من ذلك فخطئوا بعض العرب فى أقوالهم إذا لم تجر على القواعد فالبصريون إذا رأوا (إن) تنصب الاسم وترفع الخبر غالبا ، ثم رأوها فى بعض المواضع لاتسير هذا السير مع الوثوق بصحة ماورد نحو : (إن هذان الساحران) ألزموا الناس باتباع الأكثر الأغلب ، فهم قد فضلوا القياس وآمنوا بسلطانه وجروا عليه ، وأهدروا ماعداه ...

أما الكوفيون فلم يروا هذا المسلك ، ورأوا أن يحترموا كل ماجاء عن العرب ، ويجيزوا للناس أن يستعملوا استعمالهم ، ولو كان الاستعمال لاينطبق على القواعد العامة ، بل يجعلون هذا الشذوذ أساساً لوضع قاعدة عامة ، قال السيوطى فى بغية الوعاة : إن الكسائى كان يسمع الشاذ الذى لايجوز إلا فى الضرورة فيجعله أصلا ويقيس عليه ، فأفسد النحو بذلك ...

فاذا أضفت إلى ذلك أن الكوفيين كانوا أكثر رواية للشعر ، وأن الشعر المصنوع لديهم أكثر من الشعر المصنوع عند البصريين أدركت مقدار الخلف بين البصريين والكوفيين فى مسلكهم ...

ونرى فى هاتين النزعتين أن البصريين كانوا أكثر حرية وأقوى عقلا ، وأن طريقتهم أكثر تنظيما وأقوى سلطانا على اللغة ، وأن الكوفيين أقل حرية وأشد احتراما لما ورد عن العرب ...

وكان البصريون أكثر اعتدادا بأنفسهم ، وأكثر شعورا بثقة مايروون ، وأشد ارتيابا فيما يرويه الكوفيون لذلك كان الكوفى يأخذ عن البصرى ، ولكن البصرى يتحرج من أن يأخذ عن الكوفى . اهـ كلام الاستاذ أحمد أمين .

وسوف نرى أثر هذه النزعة التعليلية القياسية فى كتاب سيبويه ، وسنرى أن اعتداد سيبويه بالقياس قد كان من الاسباب التى جعلته يخفق فى رحلته إلى بغداد .

رحلته إلى بغداد

متى رحل سيبويه إلى بغداد ؟ ولم ؟ وفى مجلس من دارت المناظرة بينه وبين الكسائى ؟ وكيف أديرت ؟ وبم انتهت ؟ ولم انتهت كذلك ؟ وما الرأى فى المسألة التى كانت موضع النزاع بينهما ؟ وما نتيجة إخفاق سيبويه ؟

أما أن سيبويه رحل إلى بغداد ، ودارت بينه وبين الكسائى مناظرة فذلك مالا سبيل إلى الشك فيه ، ولكن متى رحل إلى بغداد ؟ لم يحدد التاريخ هذه السنة ، وكل مايذكره أن الرحلة كانت فى عهد الرشيد ، وأنها كانت إلى يحيى بن خالد البرمكى ، ثم يذكرون أن الرحلة قد تمت ولسيبويه من العمر نيف وثلاثون سنة ثم مات بعد هذه الرحلة بقليل . والبعض يذكر أنها تمت ولسيبويه نيف وثلاثون سنة ، ولكنه عاش بعدها نحو عشر سنوات ، ولا سبيل إلى استخلاص وجه الحق من هذه الأقوال المتضاربة ، والذى أرجحه — لأن أكثر المؤرخين عليه — أن سيبويه لم يعمر طويلا بعد هذه الرحلة ، فاذا أضفنا إلى ذلك أنه مات — كما سأرجح ذلك فيما بعد — وعمره نيف وأربعون سنة ، كانت رحلته إلى بغداد بعد الاربعين من عمره حول سنة ١٧٩ هجرية .

أما الباعث على تلك الرحلة فالطموح إلى نيل المجد المادى والادبى ، فقد كان الكوفيون إلى ذلك الحين يستأثرون بهبات الخلفاء والقيام على تربية أولادهم ، فطمع سيبويه فى أن يفتح باب الخلفاء والامراء للبصريين ، وأن يشارك الكوفيين حظهم ، وكان واثقا بنفسه الثقة كلها مؤمنا بتفوقه وقدرته على الغلب والظفر فأراد أن يبرهن للامراء على أن البصريين يفوقون الكوفيين ويبزونهم ، فعمد إلى رئيسهم مؤمنا بأن انتصاره عليه انتصار

للبصرة على الكوفة ، ومن وراء هذا النصر يجلس هو على قمة المجد الادبى ، ويظفر بما يرغب من المال والثراء ، ورغبته فيهما واضحة ، حتى ليروى أنه بعد أن أخفق فى مناظرته قال الكسائى ليحيى : ولهجة الشماتة والانتصار بادية عليه ، بعد أن كان قلبه يرتجف عندما سمع برغبة سيبويه فى الحضور إلى بغداد ـ قال : « أصلح الله الوزير ، إنه قد وفد إليك من بلده مؤملا فان رأيت ألا ترده خائبا ، فأمر له بعشرة آلاف درهم . وشهرة البرامكة بالبذل والعطاء هى التى ـ بلا ريب ـ جذبت اليهم سيبويه .

أما المناظرة فكانت فى مجلس يحيى بن خالد البرمكى ، وعنده ولداه جعفر والفضل ، وأفضل الروايات فى وصف هذه المناظرة ماذكره ياقوت فى معجمه نقلا عن الاخفش والمبرد وثعلب ، قالوا : « قدم سيبويه إلى العراق على يحيى بن خالد البرمكى ، فسأله عن خبره ، فقال : جئت لتجمع بينى وبين الكسائى ، فقال : لا تفعل ، فانه شيخ مدينة السلام ، وقارئها ، ومؤدب ولد أمير المؤمنين ، وكل من فى المصر له ومعه ، فأبى إلا أن يجمع بينهما (ومن ذلك تبدو رغبة سيبويه فى التحدى والغلب وثقته بنفسه) فعرف الرشيد خبره ، فأمره بالجمع بينهما فوعده بيوم ، فلما كان ذلك اليوم غدا سيبويه وحده إلى دار الرشيد ، فوجد الفراء والاحمر وهشام بن معاوية ومحمد بن سعدان قد سبقوه ، فسأله الاحمر عن مائة مسألة فما أجابه عنها بجواب إلا قال : أخطأت يابصرى ، فوجم سيبويه وقال : هذا سوء أدب ؛ ووافى الكسائى وقد شق أمره عليه ، ومعه خلق كثير من العرب ، فلما جلس قال له : يابصرى (ومن هذه النسبة يظهر أن المناظرة لم تكن مناظرة شخصية ، بل كان يلاحظ فيها أنها مناظرة بين البصرة والكوفة ، ولذلك أهمل ذكر اسم سيبويه فى مخاطبته ، واستبدل بيابصرى) كيف تقول : خرجت وإذا زيد قائم ، قال خرجت وإذا زيد قائم ، قال فيجوز أن تقول : خرجت فاذا زيد قائما ، قال : لا ، قال الكسائى : فكيف تقول : قد كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فاذا هو هى ، أو فاذا هو إياها ؟

فقال سيبويه : فاذا هو هى ، ولا يجوز النصب . فقال الكسائى : لحنت وخطأه الجميع . وقال الكسائى : العرب ترفع ذلك كله وتنصبه ؛ ودفع سيبويه قوله . فقال يحيى بن خالد : قد اختلفتما ، وأنتما رئيسا بلديكما ، فمن يحكم بينكما : وهذا موضع مشكل ؟ فقال الكسائى : هذه العرب ببابك ، قد جمعتهم من كل أوب ، ووفدت عليك من كل صقع ، وهم فصحاء الناس ، وقد قنع بهم أهل المصرين ، وسمع أهل الكوفة والبصرة منهم فيحضرون ويسألون ، فقال يحيى وجعفر : قد أنصفت وأمر بإحضارهم ، فدخلوا ، وفيهم أبو فقعس ، وأبو دثار ، وأبو ثروان ، فسئلوا عن المسائل التى جرت بينهما فتابعوا الكسائى .

هذه هى الرواية المعقولة للطريقة التى دارت بها المناظرة بين الكسائى وسيبويه ، وأغلب الظن أن الأعراب الذين استشهد بهم الكسائى ، قد نطقوا بتلك الجملة كما نطق ، وأغلب الظن أيضا أن بعض العرب ينطق بالجملة كذلك . وقد قال أصحاب سيبويه إن الأعراب الذين شهدوا للكسائى من أعراب الحطمية الذين كان الكسائى يقوم بهم ويأخذ عنهم . أما تلك الرواية التى تزعم أن الاعراب اكتفوا بقولهم الحق ما قال الكسائى ، وهو كلام العرب ، ولم ينطقوا كما نطق الكسائى ، فغير معقولة ولا مقبولة ، فقد كان سيبويه يعلم أن العرب الخلص فى ذلك الحين يسبق الصواب إلى ألسنتهم .

ولم يكن سيبويه من قلة الذكاء بدرجة أنه لايطلب من الاعرابى أن يتكلم ، ويرجح الاستاذ أحمد أمين أن أصبع السياسة قد لعبت فى هذه المسألة . ويروى ابن خلكان مايفهم منه أن المسألة كانت مدبرة ضد سيبويه البصرى ، وكان الأمين تلميذ الكسائى من القائمين فى هذا التدبير ، وأنهم أحضروا أعرابا ، مرنوا ألسنتهم على أن تنطق بما ينطق به الكسائى فيتم الامر ويحكم للكوفة على البصرة ، وفى ذلك إذلال لها أيما إذلال . والذى أرجحه أن المسألة أبسط مما يتصور حتى مع فرض أن إصبع السياسة قد لعبت فيها ، ذلك أن الكسائى يعلم أن البصريين ، وعلى رأسهم سيبويه ،

لا يعتدون بغير القياس ، ولا يقرون مايخالفه، وإن ثبت سماعه ، ولا يجيزون القياس عليه ، وكان من اليسير على الكسائى أن يأتى بمسألة تخرج عن القياس ولا يعدم أن يجد قوما ينطقون كما ينطق . ونحن نعلم أن بعض العرب قد شذ عن أشهر ماهو مألوف فى اللغة ونظم الكلام .

والآن ، ماوجه الصواب فى هذا الخلاف ؟ لاشك أن القياس هو ماقاله سيبويه ، وهو المتمشى مع المنطق فهو مبتدأ ، وهى خبر . وهما ضميرا رفع . وأما خرجت وإذا زيد قائم فيجوز فى قائم الرفع والنصب ، وإنما جاز فيها الوجهان وامتنع فى فاذا هو هى لأن قائما تنصب على الحال وهو نكرة أما إياها فمعرفة لاتصلح أن تكون حالا فيتعين أن نأتى بالضمير المعرفة خبراً .

حبسة لسانه

يرجع إخفاق سيبويه فى هذه المناظرة فضلا عن التحامل عليه ، وأنه لم يستصحب معه أنصاره ، ولا يؤمن بالقياس على الشاذ - إلى أنه لم يكن من الفصاحة بحيث يستطيع التأثير فى سامعيه. ويكاد مؤرخوسيبويه يجمعون على أنه كان ألكن ، حدث أحمد بن معاوية قال ذكر سيبويه عند أبى فقال: عمرو بن عثمان ، قد رأيته ، وكان حدث السن ، كنت أسمع فى ذلك العصر أنه أثبت من حمل عن الخليل ، وقد سمعته يتكلم ، ويناظر فى النحو، وكانت فى لسانه حبسة ونظرت فى كتابه فرأيت علمه أبلغ من لسانه وكانت هذه اللكنة سببا قوياً فى إخفاقه فى المناظرات، فانه لم يخفق فى مناظرته للكسائى فحسب ، ولكنه أخفق فى مناظرة أخرى دارت بينه وبين الأصمعى، وكان الحق فيها معه ، ولكنه هزم بسبب هذه اللكنة فى لسانه : حدث أبو حاتم السجستانى قال : دخلت على الأصمعى فى مرضه الذى مات فيه فسألته عن خبره ، ثم قلت له : فى نفسى شىء أريد أن أسألك عنه قال : « سل » فقلت : « حدثنى بما جرى بينك وبين سيبويه من المناظرة » فقال : والله لولا أنى لا أرجو الحياة من مرضتى هذه ماحدثتك ، إنه عرض على شىء من الأبيات

التى وضعها سيبويه فى كتابه ، ففسرتها على خلاف مافسره ، فبلغ ذلك سيبويه ، فبلغنى أنه قال : لاناظرته إلا فى المسجد الجامع ، فصليت يوما فى الجامع ، ثم خرجت فتلقانى فى المسجد فقال لى : اجلس ياأبا سعيد، ماالذى أنكرت من بيت كدا وبيت كذا ؟ ولم فسرت على خلاف مايجب ؟ فقلت له : مافسرت إلا على مايجب ، والذى فسرته أنت ووضعته خطأ ، تسألى وأجيب ، ورفعت صوتى فسمع العامة فصاحتى، ونظروا إلى لكنته ، فقالوا : لو غلب الأصمعى سيبويه ، فسرنى ذلك ، فقال لى: إذا علمت أنت ياأصمعى مانزل بك منى لم ألتفت إلى قول هؤلاء ، ونفض يده فى وجهى ومضى . ثم قال الأصمعى : يابنى ، فوالله لقد نزل بى منه شىء وددت أنى لم أتكلم فى شىء من العلم . فأنت ترى أن لكنته سبب هزيمته.

ولقد كان لمناظرة سيبويه والكسائى أثرها فى نفس كثير من العلماء كانوا يؤمنون بصدق سيبويه ، وخطأ الأعراب الذين أخذ عنهم الكسائى ، ومن هؤلاء العلماء يحيى بن المبارك اليزيدى الذى قال حينما سمع استشهاد الكسائى بأعراب الحطمية ، وهى قرية على فرسخ من بغداد منسوبة إلى السرى بن الحطم أحد القواد :

كنا نقيس النحو فيما مضى على لسان العرب الأول
فجاء أقوام يقيسونه على لغى أشياخ قطربل

وقد علق المرحوم الأستاذ عبد الخالق على ذلك قائلا : إن الفساد الذى ينسب إلى الكسائى ربما كان واقعاً ، فان القرى التى يسكنها هؤلاء (الأعراب) كانت مرتعا للبطالين والخمارين ، وهى خليط من قوم لايصح الاعتماد عليهم فى اللغة ، وقد ذكر ياقوت فى معجم البلدان مثل هذه الصفات ، هذا وإن أبا نواس قد شهر قطربل القريبة من بغداد بالخمر والخمارين .

ومن هؤلاء الذين ثاروا لهزيمة أستاذهم الأخفش الأوسط راوى كتاب سيبويه ، قال : « لما ناظر سيبويه الكسائى ورجع ، وجه إلى فعرفنى خبره معه ومضى إلى الأهواز ، فوردت بغداد ، فرأيت مسجد الكسائى ، فصليت

خلفه الغداة ، فلما انفتل من صلاته وقعد، وبين يديه الفراء والأحمر وابن سعدان سلمت ، وسألته عن مائة مسألة ، فأجاب بجوابات خطأته فى جميعها ، فأراد أصحابه الوثوب على فمنعهم ، ولم يقطعنى ما رأيتهم عليه عما كنت فيه ، فلما فرغت قال لى : بالله ، أما أنت أبو الحسن سعيد ابن مسعدة ؟ قلت : نعم فقام إلى وعانقنى ، وأجلسنى إلى جنبه ، ثم قال : لى أولاد أحب أن يتأدبوا بك ، ويتخرجوا عليك ، وتكون معى غير مفارق لى فأجبته إلى ذلك ، فلما اتصلت الأيام بالاجتماع ... قرأ على كتاب سيبويه سراً ووهب لى سبعين ديناراً ، وهكذا استطاع الكسائى - ويظهر لى أنه كان دهية - أن يلوى الأخفش عن قصده ، وليس عليه فى ذلك من بأس بعد هزيمة رأس البصريين .

كان سيبويه يؤمل كبار الآمال على هذه الرحلة ، ويرجو أن ينصر البصرة على الكوفة ، وأن ينال المكانة التى يجد نفسه جديرا بها ، فما هو إلا أن وجد آماله تنهار أمام عينيه .

بانتصار الكسائى عليه، انتصاراً يعده سيبويه مختلسا فأزمع الرحلة عن بغداد. إلى أين يتجه ؟ أ إلى البصرة ، وقد حبط فيما كان يبنيه لها من المجد ؟ أم إلى الكوفة ؟ وهو أعظم منافس لأساتذتها فضلا عن أنه لا يثق بعلمائها ، ويرى أن ما يستنبطون منه قواعدهم النحوية مكذوب مختلق ، أم يبقى فى بغداد التى شهدت أمله ينهار ؟ لا سبيل إلى شىء من ذلك ، فأزمع الرحلة إلى وطنه يقيم فيه علّه يجد برد الراحة فيستريح . أزمع سيبويه الرحلة ، ولكنها رحلة المنطوى على الضغن ، رحلة الذى لا ينسى أن له حقا فى الحياة والمجد حيل بينه وبين ما يشتهى

وفاته :

ويظهر أن الصدمة كانت شديدة عليه ، فلم يحتملها ولم يلبث أن مات غما بالذرب ، وهو فساد المعدة ، وأعجله الموت فلم يصل إلى بلده البيضاء بل وافاه الأجل فى شيراز أو بساوة بالقرب منها سنة ١٨٠ هجرية . ومما يدل

على أثر الصدمة فى نفس سيبويه أنه كان يتمثل عند موته قائلا :

يؤمل دنيـــا لتبقى له فمات المؤمل قبل الأمل

روى الأصمعى أن سيبويه مدفون بشيراز ، وأنه قرأ على قبره هذه الأبيات ، وهى لسليمان بن يزيد العدوى :

ذهب الأحبة بعد طول تزاور ونأى المزار فأسلموك وأقشعوا
تركوك أوحش ماتكون بقفرة لم يؤنسوك ، وكربة لم يدفعوا
قضى القضاء وصرت صاحب حفرة عنك الأحبة أعرضوا وتصدعوا

وذلك هو ماأرجحه من تلك الروايات التى نجدها فى الكتب التى أرخت لسيبويه ، فابن نافع وحـــده يذكر أنه مات بالبصرة سنة إحدى وستين ومائتين ، وهو قول لم يؤيده فيه أحد ، وغير معقول أيضا ، لأن سنه حينئذ لم تكن قد تجاوزت الخامسة والعشرين بكثير ، وهو مالم يقله مؤرخ ، ويروى ابن خلكان غير متثبت أنه وصل إلى البيضاء ومات فيها ، ويروى ابن النديم أنه عاد إلى البصرة ، ثم ذهب إلى فارس ، وعودته إلى البصرة مشكوك فيها بعد هذا الاخفاق .

وتحديدنا سنة وفاته بمائة وثمانين تحديد ترجيحى كذلك ، وحسبى أن أذكر أن بعض الرواة يضعها سنة إحدى وستين ومائة ، وابن الجوزى يضعها سنة أربع وتسعين ومائة والفرق بين التاريخين ثلاث وثلاثون سنة ، أما سبب ترجيحنا فأن أكثر الرواة عليه ، ويرجحه ابن الأنبارى بدليل أنه مات قبل الكسائى والكسائى مات سنة ثلاث وستين ومائة .

كانت سن سيبويه عندما توفى تزيد على الأربعين ، وعلى حسب ماحددناه تكون سنه زهاء خمس وأربعين سنة ، وهو المعقول بموازنة التواريخ ، فليس بمعقول إذاً أن نقبل قول الأستاذ أحمد أمين الذى يضع تاريخ وفاته فى الثمانين بعد المائة ، ثم يقول : إنه مات ، وعمره نيف وثلاثون سنة ، لأننا قلنا إنه أخذ عن عيسى بن عمر الذى توفى سنة تسع وأربعين ومائة ، فيكون سيبويه حينئذ فى المهد صبيا .

أخلاقه ومواهبه :

كان سيبويه ذكيا ، متوقد الذكاء ، ذا عقل منطقى متزن يحسن التفريع والتعليل ! وكتابه خير دليل على ذلك . ثم هو طموح لم يرض بحظه فى البصرة وأنه أصبح شيخها ، بل أبى إلا أن يكون وحيد دهره لاعالم فوقه فى العالم الاسلامى ، وإلى جانب طموحه كان واثقا بنفسه تمام الثقة يؤمن بقدرته فى النحو قدرة فائقة . عن أبى عثمان المازنى ، قال حدثنى الأخفش قال : حضرت مجلس الخليل ، فجاءه سيبويه ، فسأله عن مسألته ، وفسرها له الخليل فلم أفهم ماقالا ، فقمت وجلست له فى الطريق ، فقلت له : جعلنى الله فداءك ، سألت الخليل عن مسألة فلم أفهم مارد عليك ، ففهمنيه ، فأخبرنى بها ، فلم تقع لى ولا فهمتها ، فقلت له : لاتتوهم أنى أسألك إعناتا ، فانى لم أفهمها ولم تقع لى ، فقال له : ويلك ، ومتى توهمت أنى أتوهم أنك تعنتنى ، ثم زجرنى وتركنى ومضى ، وذهابه إلى بغداد وطلبه مناظرة الكسائى ، تدلنا على هذا الخلق الثابت فى نفسه ، ولكنه لم يكن مع ثقته بنفسه ، وطموحه من هؤلاء المتعجرفين الذين تمل عشرتهم ويكره قربهم ، بل كان محببا إلى نفس سامعيه ومجالسيه ، والروايات كثيرة تدل على ظرفه وكياسته حدث ابن النطاح قال : كنت عند الخليل بن أحمد فأقبل سيبويه ، فقال الخليل مرحبا بزائر لايمل . قال : وكان كثير المجالسة للخليل وماسمعت الخليل يقولها لغيره .

وكان إلى جانب ذلك — على مايظهر له — مفرط اليأس إذا يئس ، فلم يستطع أن يقاوم الصدمة التى منى بها عندما أخفق فى رحلته إلى بغداد ، ولعله أراد أن يحارب اليأس الذى حل به . فقيل إنه سأل عن أمير له فى النحو أرب ، وخرج يريد بنى طاهر فى خراسان — كما يروى — ولكن الألم الذى حز فى نفسه لم يفارقه حتى مات .

هذا وقد تحدثنا عن لكنته فيما مضى وبينا أثرها فى إخفاقه فى المناظرات .

أسرته :

أتزوج سيبويه ، وكون بيتا ؟ أم وهب نفسه للعلم وكرس حياته له ؟ لايروى التاريخ شيئا يتعلق بذلك ، وأغلب الظن أن سيبويه عاش حياته كلها للعلم والتعليم ، ونستأنس لذلك بأن الروايات التى تتحدث عن وفاته ، وتصف لحظاته الأخيرة ، لاتتحدث عن زوجة ولا ولد ، وكل مايذكره التاريخ له من الأقارب أخ ، يظهر أن الحب والمودة كانت تربطهما أوثق رباط ، ولعل سيبويه لم يكن له أخ سواه . قالوا : ولما اعتل سيبويه وضع رأسه فى حجر أخيه فبكى أخوه لما رآه لما به ، فقطرت من عينه قطرة على وجه سيبويه ، ففتح عينه فرآه يبكى فقال .

أخيين كنا فوق الدهر بيننا إلى الأمد الأقصى، ومن يأمن الدهرا

لم يترك سيبويه ذرية من بعده ، ولكنه ترك ذكرا مخلدا ، واسما سوف يبقى مابقيت اللغة العربية . وما بقى دارس لهذه اللغة ، ولقد نال سيبويه فى حياته من الشهرة وذيوع الصوت مالم ينله قبله إلا أستاذه العظيم ، الخليل ابن أحمد ، بل لقد صار اسمه يذكر بجانب أستاذه كلما تحدث الناس عن أعظم علماء النحو ، ولم تقف شهرته عند العلماء ، بل لقد كان مشهورا كذلك بين جمهور الشعب يتأثرونه ويقلدونه ، حدث التاريخى عن المبرد عن الزوارى أبى زيد قال . قال رجل لسماك بالبصرة . بكم هذه السمكة ؟ قال بدرهمان ، فضحك الرجل ، فقال السماك . ويلك ، أنت أحمق ، سمعت سيبويه يقول ، ثمنها درهمان .

تلامذته :

ترك سيبويه من بعده تلاميذه ، وكان من أشهرهم أبو الحسن الأخفش الأوسط والناشىء ، وأبو على قطرب ، وترك كتابه العظيم الذى سنتحدث عنه فيما بعد .

من أرخ لسيبويه

لم يدرس سيبويه إلى اليوم الدراسة التفصيلية التى يستحقها إمام ألف

أول كتاب وصل إلينا فى قواعد اللغة . وأقدم ترجمة اهتديت إليها لسيبويه فى كتاب أخبار النحويين البصريين للسيرافى المتوفى سنة ثلاثمائة وثمان وستين للهجرة ، وهى ترجمة موجزة تحدث فيها عن اسمه وبعض أساتذته وزملائه وتلامذته وكتابه ولم يحدد بالزمن سنى حياته ووفاته ولا مكان موته. وفى كتاب الفهرست لابن النديم المتوفى سنة ٣٨٥ خمس وثمانين وثلاثمائة ترجمة موجزة كذلك ، وتحدث فيها عما تقدم ، وأضاف إليه خبر رحلته إلى بغداد وحدد سنة وفاته .

كنا نطمع من هذين العالمين أن يشفيا غليلنا من سيبويه لقرب عهدهما به ولكن منهجهما فى التأليف وخطتهما التى اتبعاها فى الايجاز حرمتنا من معارف كثيرة كانا يستطيعان أن يقدماها إلينا .

وفى تاريخ بغداد للخطيب البغدادى المتوفى سنة ثلاث وستين وأربعمائة هجرية ، ترجمة لسيبويه ، نهج فيها المؤلف منهجه فى ذكر الروايات المختلفة بأسانيدها وفى هذه الترجمة بعض الطول وهى تحوى روايات متعارضة عن مصادر مختلفة .

وفى القرن السادس للهجرة كتب صاحب نزهة الألباء المتوفى سنة ٥٧٧ هـ وهو كوفى يتعصب للكوفيين - فصلا يشبه إلى حد كبير فصل الخطيب البغدادى ، ولم يبين وجه الصواب فى الخلاف بين سيبويه والكسائى ، ولكنه لم يستطع أن ينكر مواهب سيبويه ولا فضل كتابه . أما صاحب معجم الأدباء المتوفى سنة ٦٢٦ هـ ، فقد عقد لسيبويه فصلا مطولا ، هو أطول ما كتب عن سيبويه إلى ذلك الحين ، وفيه عيوب التأليف فى تلك العصور فلا ترتيب ولا تبويب ، ولكنها روايات تجمع ، ينتقل فيها من موضوع إلى غيره بلا صلة ولا ارتباط ، وإن كانت له تحقيقات نافعة فى كثير من الأحيان ، كتحقيق سن سيبويه عند وفاته كما تناول الحديث عن سيبويه فى مواضع شتى وفى هذا الكتاب نقل لرواية لم يمحصها وتركها كما رواها قال . نقلت من خط أبى سعد السمعانى ، مما انتخبه من طبقات أهل فارس وشيراز ، تأليف الجاحظ

أبى عبد الله محمد بن عبد العزيز الشيرازى القصار . بشير بن سعيد ، وقيل عمرو بن عثمان بن قنبر ، يكنى أبا بشر سيبويه النحوى ، (أخذ) عن الخليل بن أحمد ، وهو من الحارث بن كعب ، مات وكان على مظالم فارس ، وقبره فى شيراز ، لم يزد فى ترجمته على هذا . وأقول أنا بدورى . إن ياقوت لم يزد عن أن نقل هذه الترجمة ولم يمحصها ، فهل ولى سيبويه مظالم فارس ؟ أستبعد ذلك ، إذ لم يرو غيره من المؤرخين نبأ كهذا ، والمترجم يخطىء حتى فى اسم سيبويه مما يجعل هذه الترجمة تافهة قليلة القيمة .

عن هذه الكتب الخمسة أخذ ابن خلكان الذى توفى سنة ٦٨١ هـ ، وقد عقد له فصلا موجزا ليس فيه من جديد سوى ضبط اسم سيبويه فى العربية والفارسية ، وأخذ السيوطى أيضا المتوفى سنة ٩١١ هـ فى كتابه بغية الرعاة ، وأخذ المحدثون من أمثال جورجى زيدان والرافعى والاسكندرى .

والأستاذ أحمد أمين فى كتابه ضحى الاسلام قد تناول بالحديث نشأة النحو والتأليف فيه ومدرسة البصرة والكوفة ، وتحدث حديثاً مجملا عن كتابه سيبويه وذكر أن دراسة الكتاب وتحليله يحتاجان إلى فصل مطول .

وقد عرف المستشرقون سيبويه وكتب عنه وعن مدرستى البصرة والكوفة وعن تلاميذه وأساتذته المستشرق Huart فى كتابه La Littérature arabe الأدب العربى وتحدث عنه وعن كتابه وحقق اسمه ، وترجم بعض فصول كتابه إلى الفرنسية المستشرق المعروف Silvestre De Sacy فى كتابه Anthologie Gra maticale arabe مختارات من قواعد اللغة العربية وذكر الأستاذ جورجى زيدان فى كتابه أن المستشرق دير نبورج طبع كتاب سيبويه فى مجلدين كبيرين فى ١٠٠٠ صفحة كبيرة ، عليها تعاليق مفيدة ومقدمة باللغة الفرنسية عن مسودات هذا الكتاب ومظانها وما قيل فيها ، وقد نقله

إلى الألمانية الدكتور ياهن وطبع فى برلين ، والآن يجدر بنا أن نزن كتاب سيبويه وأن ندرسه ونحلله لنعرف قيمته الحقيقية .

ب — كتاب سيبويه

موقف الأقدمين منه

قال الجاحظ . أردت الخروج إلى محمد بن عبد الملك الزيات ، ففكرت فى شىء أهديه له ، فلم أجد شيئاً أشرف من كتاب سيبويه ، وقلت له أردت أن أهدى لك شيئاً ، ففكرت ، فاذا كل شىء عندك ، فلم أر أشرف من هذا الكتاب ، وهذا كتاب اشتريته من ميراث الفراء، قال .والله ما أهديت إلى شيئا أحب إلى منه .

وذكر صاعد بن أحمد الجيانى من أهل الأندلس فى كتابه قال . لا أعرف كتابا ألف فى علم من العلوم قديمها وحديثها فاشتمل على جميع ذلك العلم وأحاط بأجزاء ذلك الفن غير ثلاثة كتب . أحدها المجسطى لبطليموس فى علم هيئة الأفلاك ، والثانى كتاب أرسطاطاليس فى علم المنطق ، والثالث كتاب سيبويه البصرى النحوى ، فإن كل واحد من هذه لم يشذ عنه من أصول فنه شىء إلا مالا خطر له .

وقال السيرافى . كان كتاب سيبويه لشهرته وفضله علما عند النحويين ، فكان يقال بالبصرة قرأ فلان الكتاب فيعلم أنه كتاب سيبويه وقرأ نصف الكتاب ولا يشك أنه كتاب سيبويه . وكان محمد بن يزيد المبرد إذا أراد مريد أن يقرأ عليه كتاب سيبويه يقول له . هل ركبت البحر تعظيما له واستصعابا لما فيه .

وكان المازنى يقول من أراد أن يعمل كتابا كبيرا فى النحو بعد كتاب سيبويه فليستح .

وقال الزمخشرى فى هذا الكتاب .

ألا صلى الاله صلاة صدق على عمرو بن عثمان بن قنبر
فإن كتابه لم يغن عنه بنو قلم ولا أبناء منبر

تلك كانت نظرة الأقدمين إلى كتاب سيبويه نظرة التقدير والتعظيم، ولم يقتصر اجلال الكتاب على المعجبين بسيبويه بل كان خصومه فى تقديره والانتفاع به كالمحبين. حدث الأخفش - كما سبق أن روينا - أنه قرأ كتاب سيبويه على الكسائى فى جمعه، فوهب له سبعين دينارا، قال. وكان الكسائى يقول له. هذا الحرف لم أسمعه فاكتبه لى فأفعل».

قيل، فكأن الجاحظ سمع هذا الخبر، فقال مما يعدده من فخر أهل البصرة على أهل الكوفة: وهؤلاء يأتونكم بفلان وفلان، وبسيبويه الذى اعتمدتم على كتبه وجحدتم فضله؟

وحدث أبو الطيب اللغوى عن أبى عمر الزاهد قال. قال ثعلب يوما فى مجلسه. مات الفراء (وهو كوفى كما تعلم). وتحت رأسه كتاب سيبويه.

والآن لكى نستكمل البحث نرى أن ندرس النقط الآتية.

١ - متى ألف سيبويه كتابه؟ ٢ - متى ظهر الكتاب للجمهور؟ ٣ - من روى هذا الكتاب؟ ٤ - ثم ندرس خطة المؤلف وأسلوب عرضه ٥ - ونبحث بعد ذلك مصادر الكتاب، وشخصية المؤلف، وأثر الكتاب فى دراسة النحو، وآراء منتقديه، ٦ - ونختم البحث برأينا فى الكتاب.

متى ألف سيبويه كتابه؟

تاريخ تأليف هذا الكتاب مجهول كل الجهل، ولم تذكر كتب التاريخ أن الكتاب ظهر فى حياة مؤلفه، فالسيرافى والمؤرخون من بعده قد ذكروا أن الكتاب لم يظهر فى حياة سيبويه، ولكنه ظهر بعد وفاته، والذى نقله عنه ورواه للجمهور تلميذه الأخفش، قال السيرافى: والطريق إلى كتاب سيبويه الأخفش، وذلك أن كتاب سيبويه لا نعلم أحداً قرأه على سيبويه، ولا قرأه عليه سيبويه، ولكنه لما مات سيبويه قرىء الكتاب على أبى الحسن الأخفش، وكان ممن قرأه عليه أبو عمر والجرمى، وأبو عثمان المازنى. وقال

ياقوت فى معجمه : وكان الأخفش يستحسن كتاب سيبويه كل الاستحسان ، فتوهم الجرمى والمازنى أن الأخفش قد هم أن يدعى الكتاب لنفسه ، فتشاورا فى منع الأخفش من ادعائه ، فقالا : نقرؤه عليه ، فاذا قرأناه عليه أظهرناه ، وأشعنا أنه لسيبويه ، فلا يمكنه أن يدعيه ، فأرغبا الأخفش وبذلا له شيئاً من المال على أن يقرأاه عليه ، فأجاب ، وشرعا فى القراءة ، وأخذا الكتاب عنه ، وأظهراه للناس .

وتلك قصة تدل على أن الأخفش هو الراوى الوحيد لكتاب سيبويه ، ويفهم منها أن كثيراً من الناس كان يعلم بتأليف سيبويه للكتاب ، بل أرجح أن بعض أجزاء الكتاب كان معروفا للجمهور ، وكذلك بعض ما استشهد به سيبويه من الشعر بدليل ما ذكرناه من أن الأصمعى وجه هذا الشعر توجيها غير توجيه سيبويه ، واضطر سيبويه إلى مناظرته كما ذكرنا ، وإذاً فالذى كان مجهولا هو الكتاب كاملا ، أما بعضه فكان معروفا عند الجمهور ، ولو أن أمر الكتاب كان مجهولا بالكلية ، ولم يكن يعلم أحد أن سيبويه قد ألف كتاباً لكان من الميسور الشك فى نسبته إلى مؤلفه من ناحية ، وهو ما لم يروه مؤرخ ، بل الإجماع منعقد على أن هذا الكتاب لسيبويه ، ومن ناحية أخرى كان من الميسور على الأخفش أن يستلحق الكتاب وينسبه إلى نفسه ، وهو ما لم يستطع أن يفعله .

غير أن عدم ظهور الكتاب كاملا طول حياة المؤلف يجعل من حقنا أن نستنبط منه أن سيبويه ظل إلى آخر أيام حياته يراجع مؤلفه ، يزيد فيه وينقص ويقدم ويؤخر ، غير راض أن يظهره للجمهور إلا بعد أن يكون قد أرضى نفسه عنه ، فعاجلته المنية قبل أن يوفى على هذه الغاية ، ويؤيد هذا الاستنباط أيضاً أن الكتاب خال من مقدمة يضعها المؤلف فى رأس كتابه ليقدم بها الكتاب للجمهور ويذكر فيها غرضه وخطته ، وخال من خاتمة تنبىء بانتهاء المؤلف من فكرته بل إن المؤلف لم يضع لكتابه اسما يميزه كما

هو المألوف ، مما يدل على أن سيبويه قد مات من غير أن يضع الكتاب فى ثوبه النهائى .

والذى يلوح له أن سيبويه قد استغرق فى تأليف كتابه وقتاً طويلا ، وأنه قد بدأه فى وقت مبكر ، فكان يقيد مايسمعه من أساتذته وما يراه فيما ألف قبله من الكتب ، ويجمع المتفرق ويؤلف من المتناثر مجموعا كاملا ، وربما كان يعرض ما يكتبه على الأخفش الذى كان تلميذه وفى الوقت نفسه أخذ النحو عمن أخذ سيبويه عنهم . وهنا نستبعد على رجل مثل الأخفش فى علمه ، وفى ثقة أستاذه به أن ينسب الكتاب إلى نفسه ، ولكنه وهم سبق إلى الجرمى والمازنى .

ويظهر لى أن الكتاب قد ظهر للجمهور بعد موت سيبويه بقليل ، فان يونس بن حبيب قد راجع الكتاب ، وأقر بصدق ماروواه سيبويه عنه ، كما سبق أن ذكرنا ، ويونس قد مات بعد عامين من وفاة تلميذه . كما أن الكسائى الذى توفى سنة ثلاث وثمانين ومائة قرأ الكتاب على الأخفش سرا ، كما روى الأخفش .

هذا ويروى الأستاذ Huart أن الأخفش قد عارض أستاذه فى بعض آرائه ، ولكنى لم أعثر فيما بين يدى من كتب على هذه الاعتراضات .

خطة المؤلف :

لكتاب سيبويه وحدة وغرض معين ، لأن موضوعه جمع القواعد النحوية والصرفية ، وهنا يحسن أن نشير إلى أن كتاب سيبويه لا يقتصر على ذكر قواعد النحو فحسب ، بل شمل قواعد الصرف أيضاً ففيه ابواب لأوزان الكلمة ، وأنواع الاشتقاق المختلفة والتثنية والجمع والإعلال والإبدال ، والتصغير والنسب وغير ذلك من أبواب التصريف .

والكتاب مقسم إلى أبواب تبلغ زهاء ستمائة ، كل باب منها يعالج ناحية من نواحى القواعد ، وليس فى الكتاب مقدمة كما ذكرنا ، بل أوله فى صميم الموضوع إذ يتحدث عن أقسام الكلمة ، فيقول . هذا باب علم ما الكلم من

من العربية ، والكتاب جزءان . يحتوى الجزء الأول منهما عن الكلم وأقسامه ، والفاعل ، والمفعول ، وما يعمل عمل الفعل ، وإعمال المصدر ، واسم الفاعل ، والصفة المشبهة والحال والظرف والجر ، والتوابع ، والمعرفة والنكرة ، والمبتدأ والخبر ، والأسماء التى بمنزلة الفعل ، والأحرف المشبهة به ، والنداء ، والترخيم ، والنفى بلا ، والاستثناء ، وباب لكل من أحرف الجر ، وفى الجزء الثانى ماينصرف ومالا ينصرف ، والنسب والتصغير والمقصور والممدود ، والجمع ، والوقف ، والإعلال والإبدال ووزن الكلمات ولكن ترتيب الكتاب يخالف النهج الذى نتبعه ويتبعه المؤلفون المتأخرون فيما يأتى .

أولا . ترتيب أبواب الكتاب يخالف ماعهدناه من الترتيب فيما نتداوله من الكتب التى بين أيدينا ، فلا يأتى بالمرفوعات كلها على حدة ثم المنصوبات والمجرورات مثلا ، بل بعضها ممزوج ببعض كما رأينا ذلك وأنا أسرد أبواب الكتاب فينتقل من الفاعل إلى المفعول ثم بعد أبواب كثيرة يذكر المبتدأ والخبر ، وهكذا .

ثانيا . لا يسير فى ترتيب أبوابه وفصوله على الطريقة المنطقية الدقيقة فيقدم أبوابا من حقها أن تتأخر ويؤخر أبوابا من حقها أن تتقدم ، ويضع فصولا فى غير موضعها الطبيعى ، فهو يتحدث عن المسند اليه والمسند وكان من اللائق أن يستوفى أبواب المسند اليه من مبتدأ وفاعل وغيرهما ثم يعود إلى المسند ليستوفى أنواعه وأحكامه ولكنه لم يتبع ذلك ، وكثيراً ما تقول — وأنت تقرأ الكتاب — ليت ذلك الباب وضع هنا ، أوليت ذلك الفصل قد انتقل إلى هناك .

ثالثا . يذكر سيبويه الباب العام ، ثم يعقد لكل مسألة من مسائله تقريبا بابا خاصا يعالجها ، فهو يعنون — مثلا — للتصغير ، ويذكر صيغه المختلفة ، ثم يعقد أبوابا للمسائل الجزئية فيه ، فتجد بابا لتصغير ما يكون على خمسة أحرف ، وآخر لتصغير المضاعف ، وبابا لتصغير ماكان على ثلاثة أحرف

ولحقته الزيادة للتأنيث ، وأبواباً أخرى لفروع التصغير المختلفة .

رابعا . يذكر مسائل فى أبواب نضعها نحن تحت عنوانات أخرى ، فمثلا هو يعد فى أبواب الفاعل بابا للفاعل الذى لم يتعده فعله إلى مفعول ، وبابا آخر للفاعل الذى يتعداه فعله إلى مفعول ، وبابا ثالثا للفعل الذى يتعداه فعله إلى مفعولين ، بينما نحن الآن نضع ذلك تحت عنوان الفعل المتعدى واللازم .

خامسا . لايذكر دائما مسائل الباب الواحد سلسله متصلة متتابعة ، بل يذكر بعضها فى موضع وبعضها الآخر فى موضع ثان ، بعد أن يفصل بينهما فى كثير من الأحيان بأبواب أخرى ، وتذكر هذه المسائل لمناسبات تستدعيها .

سادسا . أن الاصطلاحات النحوية لم تكن قد استقرت بعد ، ومن أجل ذلك نجده يضع عناوين طويلة لأبواب ، وغالبا ما تكون هذه العناوين غير مفهومة لنا ، فترى نفسك مضطراً إلى العودة إلى صلب الكتاب لتفهم المقصود منها ، وقلما تجد عنوانا مفهوما لك فى هـــذا الكتاب ، وحسبك أن تعلم أنه وضع لإن وأخواتها هذا العنوان . هذا باب الحروف الخمسة التى تعمل فيما بعدها كعمل الفعل فيما بعده ، وهى من الفعل بمنزلة عشرين من الأسماء التى بمنزلة الفعل ولا تصرف تصرف الأفعال كما أن عشرين لا تصرف تصرف الأسماء التى أخذت من الفعل وكانت بمنزلته ، ولكن يقال بمنزلة الأسماء التى أخذت من الأفعال وشبهت بها فى هـــذا الموضع ، فنصبت درهما لانه ليس من نعتها ولا هى مضافة اليه ، ولم ترد أن تحمل الدرهم على ما حمل العشرون عليه ، ولكنه واحد بين به العدد فعملت فيه كعمل الضارب فى زيد إذا قلت هذا ضارب زيدا ، لان زيدا ليس من صفة الضارب ولا محمولا على ما حمل عليه الضارب ، وكذلك هذه الحروف منزلتها من الافعال ، وبعد ذلك كله يقول . وهى إن ولكن وليت ولعل وكأن . ويضع عنوانا لباب كان وأخواتها قوله . هذا باب الفاعل الذى يتعدى اسم الفاعل إلى اسم المفعول واسم الفاعل والمفعول فيه لشيء واحد ،

ويضع عنوانا للمفعول لاجله قوله . هذا باب ماينتصب من المصادر لانه عذر .

ويدلنا على أن الاصطلاحات النحوية لم تكن قد استقرت أنه لم يضع لاسماء الاشارة اسما ، بل دعاها الاسماء المبهمة ، كما كان يدعو التسكين جزما فيقول وجزمت لدنه ، ويسمي المقصور منقوصا ، وغير ذلك كثير .

سابعا . يذكر القاعدة وأمثلتها ، ويمزج ذلك بالتعليلات المنطقية ، وبيان وجه القياس فيما يذكره من القواعد ، وعرض الآراء المختلفة فى الموضوع الواحد.

ثامنا . يفرض فروضا يضع لها أحكاما فيقول مثلا (ص ٣ / ٢) ولو جاء فى الكلام شيء نحو أكل وأيقق فسميت به رجلا صرفته لانه لو كان أفعل لم يكن الحرف الاول إلا ساكنا مدغما .

تاسعاً . لم تكن الابواب قد تميز بعضها من بعض التميز الكافى ، ويدلنا على ذلك باب التمييز وباب التعجب مما لم يتحدد معالمه التحدد الواضح فى كتاب سيبويه .

دراسة باب من أبواب الكتاب

ولعل من الخير أن ندرس بابا من أبواب الكتاب لنرى فى صورة أوضح منهج الكتاب فى التأليف وطريقته فى تناول مسائل النحو ، ولنأخذ باب الحال لنرى الفرق بين تناول سيبويه له وتناول المحدثين .

لم يضع سيبويه عنوانا للحال ثم يذكر أحكامه المختلفة كما نرى ذلك مثلا عندما نأخذ كتابا كالتوضح ، بل ذكر أحكام الحال موزعة فى نواح شتى ، وأول ماذكر باب الحال فى كتاب سيبويه كان بين أبواب المفعول وعنون له سيبويه بقوله ، هذا باب مايعمل فيه العمل ، فينتصب وهو حال وقع فيه الفعل وليس بمفعول . وفى هذا الفصل أوضح سيبويه لم لا يجوز أن يعرب الحال مفعولا . وبعد أبواب عدة تحدث فيها سيبويه عن كان وأخواتها وظن وأخواتها والتنازع والاشتغال وإعمال اسم الفاعل والمصدر والصفة المشبهة ، والمفعول المطلق وشيء من التمييز والتحذير والمفعول معه ، وعاد إلى المفعول

المطلق عرض بين أبوابه بابين من أبواب الحال ، عنون لأحدهما بقوله . هذا باب مايتصب من الأسماء انتصاب الفعل استفهمت أو لم تستفهم : وذكر تحت هذا العنوان حكم الحال عندما يكون عامله محذوفا ، وذلك مثل قولك ، أقائما وقد قد الناس ، وقدر سيبويه أن العامل فيه فعل من لفظه كأنه يقول : أتقوم قائما ، قال السيرافى . وأنكره بعض الناس لأن لفظ الفعل لايكاد يعمل فى اسم الفاعل الذى من لفظه ، قال المبرد . والقول عندى ماقاله سيبويه ، لأنه قد تكون الحال توكيدا كما يكون المصدر توكيدا . وعنون للباب الثانى بقوله ، وهذا باب ماجرى من الأسماء التى لم تؤخذ من الفعل مجرى الأسماء التى أخذت من الفعل ، وذكر فى هذا الباب مايكون عامل الحال فيه محذوفا وليس من لفظه وذلك مثل قولك : أتميميا مرة وقيسيا أخرى ، أى أتدعى أو أتتحول وإنما ذكر هذين البابين بين أبواب المفعول المطلق لمشابهتهما له فى أن عامله أحيانا يكون محذوفا كقول جرير : ألؤما لا أبالك واغترابا ، أى أتلؤم لؤما وتغترب اغترابا ثم عاد بعد ذلك إلى المفعول المطلق فى أبواب كثيرة ، وانتقل إلى المفعول لأجله ، ثم عاد إلى باب الحال ، فذكر فى أبواب شتى المصادر التى تعرب حالا سواء كانت نكرة أو معرفة ، والأسماء التى تعرب كالمصادر أحوالا مع أنها معرفة . وذكر هذه الفصول من الحال فى هذا الموضع لأن الحال مصدر أو كالمصدر . وبعد أن ذكر بابا آخر فى المفعول المطلق عقد بابا فيه مسائل مشتركة بين الحال والمفعول ، ثم عاد بعد فصل آخر ليس من باب الحال إلى ذكر أبواب للحال الذى يقع جامدا ، مما يدل على مفاعلة كلمته فاه إلى فى أو سعر ، والحال الذى يقع معرفته ، ثم انتقل إلى ظرف الزمان والمكان وباب الجر ، وباب النعت والعطف والبدل ثم عاد إلى باب الحال عندما يكون العامل فيه الابتداء مثل قولك : ماشأنك قائما ، وترك ذلك إلى النعت المقطوع وأطال فيه ، ثم عاد إلى باب الحال فذكر فصلا عندما يكون صاحبها خبر الاسم إشارة أو ضمير ، وفصلا آخر عندما يكون صاحبها معرفة ونكرة مثل

قولك : هذان رجلان وعبد الله منطلقين ، وبابا لما يصح أن يعرب حالا أو خبراً مثل هذا الرجل منطلق أو منطلقا ، وبابا لما يعرب حالا وكان فى الأصل خبراً مثل : فيها عبد الله قائما ، ثم ذكر شيئا من باب المعرفة والنكرة وعاد إلى أبوب أخرى من أبواب الحال . هذا إلى مسائل متناثرة منه هنا وهناك تذكر فى أبواب أخرى لمناسبة بينها وبين هذه الأبواب .

هذه صورة لباب من الأبواب التى تناولها الكتاب ، ذكرت مسائله موزعة فى أماكن شتى ، تبعاً للمناسبات التى تستدعيها ، ولكن من الواجب أن أشير إلى أنه ليس كل الأبواب فى الكتاب كباب الحال . بل بعضها أفضل منه حظا فذكرت مسائلها متقاربة نوعا من التقارب ، كما كان بعضها أسوأ منه حظاً ، فعرضت مبعثرة متناثرة .

وعذر سيبويه فى ذلك كله أمران . أولهما أن ترتيب أبواب النحو الترتيب النهائى لم يكن قد تم بعد ، وثانيهما مارجحناه من أن سيبويه لم يضع كتابه فى وضعه النهائى كما أسلفنا .

أسلوب الكتاب :

كتاب سيبويه كتاب موضوع للعلماء ، وهو من أجل ذلك موجز ، كل كلمة فيه موضوعة لمعنى ، فهو يشبه مع ضخامته - متنا من المتون ، ومن أجل ذلك وضع عليه العلماء كثيرا من الشروح ، وقد يستغرب أن أقول : إنه مع الايجاز يلتزم جانب التفصيل والتوضيح لما يتناوله حتى يستوفيه ، ولكل لاحل للغرابة إذا ذكرنا أنه مع التفصيل يلتزم جانب الايجاز أيضاً والذى ساعده على التفصيل تجزئة الموضوع إلى أبواب كثيرة يستوفى فى كل باب منها مسألة يذكر قاعدتها وأمثلتها ويفرعها ويفرض فروضا يضع لها أحكاما ، ويذكر فيها الآراء المختلفة .

وهذا الايجاز الذى تحدثت عنه يسبب فى أحيان كثيرة غموضا وإبهاما

والتواء مما يحتاج إلى إعمال الروية والتأنى فى فهم غرض المؤلف ، ولست أرمى إلى أن الكتاب غامض غير مفهوم بل أريد أن أثبت أن الغموض واقع فى بعض الفصول ، ولكنه فى الأغلب واضح ، غير أنك لاتستطيع مع ذلك أن تقرأه إلا وأنت متربث على سهل ، وأسلوب الكتاب يرمى إلى التفهيم لا التأثير ، ومع ذلك لا أستطيع أن أخفى ضعف الابانية فى كثير من صفحات الكتاب .

مصادر الكتاب :

وبعد فمن المستبعد أن يظهر كتاب شامل فى النحو والصرف كـكتاب سيبويه من غير أن يكون قد سبقته محاولات اقتبس منها ، وسار على هداها وهم يقولون لذلك إن سيبويه قد اقتبس ممن سبقه ولا سيما عيسى بن عمر الثقفى الذى ألف كتابين فى هذه المادة سماهما الاكمال والجامع ، ويروون أن الخليل قال فيهما :

ذهب النحو جميعـــاً كله غير ما أحدث عيسى بن عمر
ذاك إكمال وهـــذا جامع فهما للنـــاس شمس وقمر

غير أن هذين الكتابين لم يبقيا ، وعفى على آثارهما كتاب سيبويه ، ويظهر لى أنه من الحق أن نعد كتاب سيبويه ثمرة لكل الجهود التى قام بها العلماء والمؤلفون منذ بدأ أبو الأسود هذا النحو ، فجمع سيبويه ماتفرق فى كتبهم ، وما استشهدوا به من شعر ، ورتبه ونظمه ، وأضاف إليه ماسمعه بنفسه .

وهكذا يجب أن نفهم ماقاله ثعلب : اجتمع على صنعة كتاب سيبويه اثنان وأربعون إنسانا منهم سيبويه ، والأصول والمسائل للخليل ، فليس معناه أن واحدا وأربعين إنسانا اشتركوا مع سيبويه فى تأليف كتابه ، ولكن معناه أن سيبويه قد انتفع بعلم من سبقه وقد كانوا كثرا ، وبنتائج أبحاثهم .

أما هذه الرواية التي نقلها ابن خلكان فى ترجمة عيسى بن عمر حين قال:

وأخذ سيبويه عنه النحو ، وله الكتاب الذى سماه الجامع فى النحو ، ويقال إن سيبويه أخذ هذا الكتاب وبسطه وحشى عليه من كلام الخليل وغيره ، ولما كمل بالبحث والتحشية نسب إليه وهو كتاب سيبويه المشهور ، قال ابن خلكان : والذى يدل على صحة هذا القول أن سيبويه لما فارق عيسى بن عمر المذكور ، ولازم الخليل بن أحمد سأله الخليل عن مصنفات عيسى ، فقال له سيبويه : صنف نيفا وسبعين مصنفا فى النحو ، وأن بعض أهل اليسار جمعها وأثبت عندة عليها آفة ، فذهبت ولم يبق منها فى الوجود سوى كتابين : أحدهما اسمه الاكمال ، وهو بأرض فارس عند فلان ، والآخر الجامع ، وهو هذا الكتاب الذى اشتغل فيه وأسألك عن غوامضه ، فأطرق الخليل ساعة ثم رفع رأسه وقال : رحم الله عيسى ، وأنشد : ذهب النحو ... الخ . أما هذه الرواية فمنقوضة لا أساس لها من الصحة فيما أرى ، وهى أقرب إلى التأليف منها إلى الحق والصواب فغريب ألا توجد من مؤلفات عيسى سوى نسخة واحدة عند هذا الثرى ، وغريب أيضا أن تأتى الآفة على جميع كتبه غير هذين الكتابين ، هذا إلى أنى أستبعد على الخليل بن أحمد ، ومنزلته فى النحو منزلته ألا يكون قد اطلع على أهم ماخلفه عيسى بن عمر ، وأستبعد عليه ، وهو الرجل الذى يزن كلامه بميزان الذهب أن يتحدث عن كتابين لم يرهما هذا الحديث الملىء بالاكبار والاعجاب ، واستبعد عليه أيضا أن يظل جاهلا أنه تلميذه يقرأ عليه كتاب الجامع ليشرحه ويحشوه ، هذا وكتاب سيبويه ليس فيه مايدل على أن أصله متن وشرح ، ولكنه كتاب وضع وضعا ابتدائيا كذلك . وليس معنى هذا أنه لم ينتفع بكتابى عيسى ، بن عمر ، بل قد انتفع بهما وبغيرهما ، شأنه فى ذلك شأن كل مؤلف محترم حتى عصرنا الحاضر — يريد أن يضع كتابا قيما ، فمن المحتم عليه ان يرجع إلى ماسبقه من الكتب يستفيد بنتائجها وتجاربها ، ولا يعد ذلك عيبا فى المؤلف أو نقصا فى كتابه ، بل إنه ليعد ناقصا مقصراً إذا لم يرجع إلى الكتب المؤلفة قبله

استفاد سيبويه ومن حقه أن يستفيد من الكتب السابقة ، ونقل أيضا عن أساتذته الذين تحدثنا عنهم فيما مضى ، وكلهم من البصريين ، ولم يأخذ إلا عن الرؤاسى من الكوفيين ناقلا عن كتابه الذى سماه الفيصل — كما ذكر ذلك ياقوت — وأكثر من روى عنه الخليل بن أحمد . وإن سيبويه ليقف منه فى الكتاب موقف التلميذ من أستاذه ، يسأله عن الأحكام والعلل وفروق القياس ، ويثبت إجابة الخليل ، بل لقد نقل إلينا فى فصل من فصول الكتاب درسا من دروسه ، فقد عقد بابا عنوانه : هذا باب إرادة اللفظ بالحرف الواحد ، ص ٦١ ح ٢ ، قال : قال الخليل يوما وسأل أصحابه : كيف تقولون إذا أردتم أن تلفظوا بالكاف التى فى لك والكاف التى فى مالك والباء التى فى ضرب ؟ فقيل له : نقول باء ، كاف ، فقال : إنما جئتم بالاسم ولم تلفظوا بالحرف ، وقال : أقول : كه وبه ، فقلنا : لم ألحقت الهاء فقال — وهنا أوجه النظر إلى مثل من أمثلة القياس الذى كان يستخدمه الخليل — قال : رأيتهم قالوا : عه ، فألحقوا هاء حتى صيروها يستطاع الكلام بها ، لأنه لا يلفظ بحرف ، فان وصلت قلت ، ، وب ، فاعلم ياقتى ، كما قالوا : ع ياقتى ، ويمضى سيبويه بعد ذلك ناقلا أسئلة الخليل وأجوبته وأجوبة تلاميذه ونستطيع أن نأخذ من ذلك صورة لسير الدروس فى ذلك الحين فقد كانت تسير على طريقة المناقشة لا الالقاء .

ونقل سيبويه كثيراً عن يونس أيضاً حتى لقد ينقل عنه أبوابا برمتها فى الكتاب فصلان فى التصغير نقلهما عنه وقال : وجميع ما ذكرت لك فى هذا الباب وما أذكر لك فى الباب الذى يليه قول يونس . كما كان يروى عن أبى الخطاب الأخفش الكبير . ويقول حدثنى من أثق بعربيته ، ويريد : أبا زيد ، كما سبق أن ذكرنا ، ويحكى أقوال أبى عمرو بن العلاء ويوازن بينها وبين قول الخليل ويونس ، وكان رائده الحق فلا يتعصب للخليل بل للصواب فنسمعه يقول أحياناً : وقول يونس أقوى ، وأحياناً يروى عن العرب مباشرة ويقول : إنه سمع منهم . وذلك كله يدل على سعة إطلاع سيبويه وتضلعه .

شخصية المؤلف :

استفاد سيبويه — ولا ريب — من الكتب المؤلفة قبله ، وأخذ عن أساتذته — كما ذكرنا — فهل أفنى كل ذلك شخصية المؤلف فأصبح جماعا ليس غير ؟

إن كتاب سيبويه لتطل منه شخصيته واضحة قوية فيما يأتى :

أولا : أسلوبه ، فالمعلومات قد يتلقاها المرء من هنا ومن هنا ، ولكن وضع هذه المعلومات فى أسلوب خاص وطريقة خاصة من طرق التعبير هو ما يميز شخصا من آخر . يقول Buffon فى حديثه عن الأسلوب : إن الموضوعات والمكشوفات تسرق بسهولة ، وتنتقل ، وتكتب أيضاً بأيد أكثر مهارة ؛ إن هذه الأشياء خارجة عن الرجل ، أما الأسلوب فالرجل نفسه . وإذا فشخصية سيبويه واضحة كل الوضوح فى أسلوبه الذى صاغ به معلوماته التى أخذها من جميع المصادر المعروفة فى ذلك الحين .

ويقول بعض المؤرخين إن الكتاب معقود بلفظ الخليل ، وهو ما لا أوافق عليه ، فالكتاب بين أيدينا معقود بلفظ سيبويه ، وما نقله عن الخليل أو غيره نسبه اليه فى صراحة ، وقد تحدثنا عن أسلوب سيبويه فيما مضى .

ثانيا : تبويب الكتاب وتقسيمه وترتيبه ، وذلك من صنع سيبويه ، ولا نستطيع أن نعرف إلى أى مدى استفاد من تبويب الكتب السابقة ، لأنها لم تصل إلينا .

ثالثا : الاستنباط وحسن التعليل والبرهنة والتفريع ، وحظ سيبويه من ذلك حظ غير يسير ، فلا تكاد تخلو صفحة من صفحات الكتاب من استنباط يسوقه ، أو تعليل يأتى به ، أو برهان يقدمه ، أو تفريع يذكر أحكامه المختلفة ، مما يدل على عبقرية ممتازة وشخصية قوية لا تكتفى بالنقل والتقليد .

شخصية سيبويه واضحة إذاً فى كتابه كل الوضوح ، فالكتاب كتاب سيبويه ، كتبه بقلمه ، وصاغ أسلوبه بفكره ، واشترك فيما فيه من استنباط

وتعليل وبرهنة وتفريع ، وهل يعظم الخليل سيبويه إلا إذا كان قد رآه آخذاً طريقه مجيداً للتعليل والقياس والتفريع .

شواهد الكتاب :

للكتاب مصدران من الشواهد هما القرآن الكريم ، وكلام العرب ، وأشعارهم ، وأمثالهم وحكمهم ، وفى هذا العصر القديم احتاج العلماء إلى شعر العرب يستنبطون منه قواعدهم ، ويثبتون به آراءهم ، وكانوا يستشهدون على ذلك بأشعار الطبقتين من الجاهليين والمخضرمين ، ثم اختلفوا فى الإسلاميين كجرير والفرزدق ، والأكثر على جواز الاستشهاد بأشعارهم ، وكان أبو عمرو ابن العلاء وعبدالله بن أبى إسحق والحسن البصرى يلحنون الفرزدق والكميت وذا الرمة ومن على شاكلتهم ويعدونهم من المولدين الذين لا يجوز الاستشهاد بكلامهم ، وقد كان بين ابن أبى إسحق وبين الفرزدق خصومة ونزاع ، فقد سمع الفرزدق يقول :

وعض زمان يابن مروان لم يدع من المال إلا مسحتا أو مجلف

فرأى أن مجلف فى رفعها لا تناسب مسحتا فى نصبها فاعترض على الفرزدق ، فهجاه الفرزدق بقوله :

فلو كان عبد الله مولى هجوته ولكن عبد الله مولى موالیا

فاعترض ابن أبى إسحق على قوله مولى موالیا أيضاً ، وقال : بل هو مولى موال ، وسمع قول الفرزدق :

مستقبلين شمال الشام تضربنا بحاصب كنديف القطن منثور

على عمائمنا تلقى وأرحلنا على زواحف تزجى مخها ریر(١)

فقال ابن أبى إسحق إنما هو ریر ، وخالفه يونس ، فقال إن ما قاله الفرزدق جائز حسن ، فلما ألحوا على الفرزدق قال : زواحف تزجيها محاسير .

ولكن الثقات مجمعون على أن الاستشهاد بالشعراء جائز به وبطبقته ،

(١) مخ دار وریر أى ذائب فاسد من الهزال .

وبمن جاء بعده من المحدثين الذين ينتسبون فى العرب ، ولم يتجاوز الثقات بهم مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية : روى ابن قتيبة عن الأصمعى أنه قال : ساقة الشعراء ابن ميادة (سنة ١٤٩) وابن هرمة ورؤبة (سنة ١٤٥) وحكم الخضرى وجميعهم من مخضرمى الدولتين :الأموية والعباسية .

هذا ، وقد كان البصريون يجتهدون — كما ذكرنا — فى أن يتعرفوا قائل الشعر ، وخلوص عربيته ، ولا يأخذون شواهدهم إلا من العرب الخلص الذين لم تفسد ألسنتهم بمجاورة الأعاجم ، وهم يثبتون قبل أن يستنبطوا أما الكوفيون فليس لهم ماهؤلاء من التدقيق والتحقيق .

وقد بذل سيبويه جهده فى تخير شواهد كتابه ، وأخذ هذه الشواهد عن الجاهلية كزهير والنابغة ، والمخضرمين كحسان والحطيئة ، وشعراء الأمويين كجرير والفرزدق والكميت وابن أبى ربيعة ، وابن قيس الرقيات ، وجميل والأخطل ، وأخـــذ عمن قال الثقات : إن شعرهم آخر شعر يحتج به وهم ابن ميادة وابن هرمة ورؤبة بن العجاج ، فكان موقفه من هؤلاء الإسلاميين غير موقف أبى عمرو بن العلاء وصحبه . ولست أدرى رأى سيبويه فى بيت الفرزدق : مستقبلين شمال الشام . . ولعله يوافق رأى أستاذه يونس ، من جوازه واستحسانه ، ولا رأيه فى البيت الأول : وعض زمان ... أما رأيه فى البيت الثانى ، فقد ذكره فى الجزء الثانى من كتابه (ص ٥٨) وبين أن الخليل قد خرجه على الضرورة الشعرية التى تحفظ ولا يقاس عليها .

أما موقف سيبويه من بشار فلم يستشهد بشعره فى كتابه ، وروى أن سيبويه طعن على بشار فى قوله .

فالآن أقصر عن سمية باطلى وأشار بالوجلى على مشير

وفى قوله .

على الغزلى منى السلام فربما لهوت بها فى ظل مرءومة زهر

وفى قوله يصف سفينة .

تلاعب نينان البحور ، وربمـــا رأيت نفوس القوم من جريها تجرى

وقال لم يسمع من الوجل والغزل فعلى ، ولم أسمع بنون ونينان ، فبلغ ذلك بشارا ، فغضب وهجاه .. وكلنا يعلم مرارة لسان بشار — بقوله .

أسيبويه يابن الفـــارسية ما الذى تحدثت عن شتمى وما كنت تنبذ ؟!
أظلت تغنى سادرا فى مساءتى وأمك بالمصرين تعطى وتأخذ !

وأى هجاء أبلغ من حذف المفعول فى الفعلين . تعطى وتأخذ ، فيقال إن سيبويه توقاه بعد ذلك ، وكان إذا سئل عن شىء فأجاب عنه ، ووجد له شاهداً من شعر بشار ، احتج به استكفافا لشره ، ولعل بشارا أراد أن يحاسن سيبويه بعد أن أصبح يحتج بشعره فغير نينان البحور ، وجعلها تيار البحور .

هذا ، وأما جمع نون على نينان فقد أثبته صاحب القاموس واللسان ، وحكى السيد المرتضى فى شرح القاموس تخطئة سيبويه لبشار ، ثم قال . واستعمله المتنبى ، وغلطوه أيضاً .

تثبت سيبويه فى اختيار شواهد كتابه حتى ليقال . إنها أصح شواهد ، وقد انتقد بعضهم بعض شواهده ، فالمبرد فى كامله يقول . وقد روى سيبويه بيتين محمولين على الضرورة ، وكلاهما مصنوع ، وليس أحد من النحويين المفتشين يجيز مثل هذا فى الضرورة ، والبيت الأول هو .

هم القائلون الخير والآمرونه إذا ماخشوا يوما من الأمر معظما والثانى .

ولم يرتفق والناس محتضرونه جميعا ، وأيدى المعتفين رواهقه

والبيتان مذكوران فى الجزء الأول من كتاب سيبويه فى باب إعمال اسم الفاعل ، وقد رجعت اليهما . فوجدت سيبويه يقول . واعلم أن حذف النون والتنوين لازم مع علامة المضمر غير المنفصل ... وقد جاء فى الشعر

فزعموا أنه مصنوع ، ثم أورد البيتين المذكورين ، فسيبويه يخبر كذلك أنهما مصنوعان فلا وجه لاعتراض المبرد عليه .

وروى أيضاً أن سيبويه سأل اللاحقي . هل تحفظ للعرب شاهدا على إعمال فعل ؟ قال اللاحقي . فوضعت له هذا البيت .

حذر أمورا لا تضير ، وآمن ماليس منجيه من الأقدار

وقد رجعت إلى كتاب سيبويه ، فلم أجد هذه القصة ، ولكنه أورد البيت شاهدا على إعمال فعل . وقد علق الأعلم الشنتمري بعد أن ذكر قول من زعم صناعة هذا البيت بقوله : وإن كان هذا صحيحا فلا يضر ذلك سيبويه لأن القياس يعضده . وقد ألفيت في بعض ما رأيت لزيد الخيل بن مهلهل الطائي بيتاً في تعدى فعل وهو قوله :

أتاني أنهم مزقون عرضي جحاش الكرملين لها فديد

فقال : مزقون عرضي كما ترى ، وأجراه مجرى ممزقين ، وهذا لا يحتمل غير هذا التأويل فقد ثبت صحة القياس بهذا الشاهد القاطع .

وأقول بدوري : إن ذلك لن يكون مطعنا في شواهد سيبويه التي يبلغ عددها ألفاً وخمسين بيتاً ؛ فحدث التاريخي عن المبرد عن المازني عن الجرمي قال : في كتاب سيبويه ألف وخمسون بيتاً سألت عنها فعرف ألف ولم تعرف خمسون أي من قائليها . وذكر الأستاذ الرافعي في هامش كتابه أن المرحوم الشنقيطي ذكر في حماسته المطبوعة أنه علم واحداً من هذه الخمسين وهو قول القائل : أقبعد كندة تمدحن قبيلا ؛ فقال إنه لامرىء القيس . ولكني رجعت إلى كتاب سيبويه فوجدت هذا الشطر بالجزء الثاني (ص ١٤١) في باب نون التوكيد منسوبا إلى شاعر يسمى (مقنعا) ، ولعل الأستاذ الشنقيطي نسبه إلى امرىء القيس لما فيه من مدح كندة قبيلة الشاعر ، وذكر الأستاذ الرافعي رأيه فقال : والصحيح أن تلك الأبيات التي منها هذا الشطر موضوعة على امرىء القيس لنزولها عن طبقته ، وظهور الصنعة والتوليد فيها .

هذا وقد كان استشهاد سيبويه فى كتابه بآيات من القرآن الكريم مدعاة إلى تحرج بعض العلماء أن يدرس الكتاب لغير المسلمين ، قال صاحب كتاب الوافى بالوفيات : وكان المازنى فى غاية الورع ، قصده بعض أهل الذمة ليقرأ عليه كتاب سيبويه ، وبذل له مائة دينار فى تدريسه إياه فامتنع ، فقال له المبرد : جعلت فداك ! أترد هذه المنفعة ، مع فاقتك وشدة إضاقتك ؟ افقال: إن هذا الكتاب يشتمل على ثلاثمائة وكذا وكذا آية من كتاب الله عزوجل، ولست أرى أن أمكن منها ذمياً ، وغيرة على كتاب الله وحمية له .

الكتاب ودراسة النحو .

أصبح كتاب سيبويه بعد أن ظهر للناس برنامجاً لمن أراد الدراسة العليا فى النحو ، وأصبح الطالب لا يعد مستكملا هذا النوع من الدراسة إلا إذا قرأ كتاب سيبويه ، وصار اسم الكتاب يطلق عليه ، ويفتخر الطلبة بأنهم قرءوه ، وممن باهى بذلك أبو نواس وغيره من شعراء العصر ، وقد ذكرت فيما مضى مغالاة الناس بهذا الكتاب ، وحرصهم على دراسته سواء أكانوا من محبى سيبويه أم من خصومه ، ومن هؤلاء الأعلام الذين درسوا كتاب سيبويه فى تلك العصور الأولى غير من ذكرناه فيما سبق — الجرمى والزيادى والسجستانى وأبو العباس المبرد وغيرهم ، ولم يكن يحسب العالم عالما فى النحو إلا إذا درس كتاب سيبويه كله ، قال أبو على الفارسى ، جئت لأسمع من ابن السراج كتابَ سيبويه وحملت إليه ما حملت ، فلما انتصف الكتاب عسر على إتمامه ، فانقطعت عنه لتمكنى من مسائله ، فقلت فى نفسى بعد مدة : إذا عدت إلى فارس ، وسئلت عن اتمامه فان قلت نعم ، كذبت ؛ وإن قلت لا ، بطلت الراوية .

العناية بالكتاب .

وكان كتاب سيبويه منذ تأليفه موضعاً لمراجعة العلماء ، منهم من يشرحه ومنهم من ينظم ترتيب أبوابه ، ومن هؤلاء ابن السراج الذي ألف كتاب

الأصول ، وقد جمع فيه أصول علم العربية ، وأخذ مسائل سيبويه ورتبها أحسن ترتيب كما أنه شرح كتاب سيبويه .

وممن شرح كتاب سيبويه أيضا سعيد بن المرزبان ، والأخفش الصغير وأبو سعيد السيرافى كما قام بشرح شواهده يوسف بن سليمان الشنتمرى .

ولم يقف كتاب سيبويه عند حدود المشرق بل جاز البحر إلى بلاد الأندلس ، وقد عقد الأستاذ الرافعى فى كتابه تاريخ آداب العرب فصلا تحدث فيه عن كتاب سيبويه فى الأندلس : فذكر أن أقدم ما وقف عليه من حفظ كتاب سيبويه هناك هو حمدون النحوى ، المتوفى بعد المائتين ، ثم ذكر من شهر بحفظ الكتاب وتدريسه وشرحه والتعليق عليه ، مما يدل على ما لاقاه هذا الكتاب فى الأندلس من الاجلال وحسن التقدير تقديراً لا يقل عن تقدير أهل المشرق له إن لم يزد حتى كانوا يتنافسون فى حفظه عن ظهر قلب ، وقد قام بعضهم باختصاره للطلبة المبتدئين ، ومن أشهرهم أبو حيان فى القرن الثامن .

ما أخذه العلماء على سيبويه .

قال ثعلب : « يقول سيبويه فى كتابه فى غير نسخة : حاشا حرف يخفض ما بعده ، كما تخفض حتى ، وفيها معنى الاستثناء » ، وقد رد عليه الزجاج بأن ذلك فى كتابه ، وهو صحيح ذهب فى التذكير إلى الحرف وفى التأنيث إلى الكلمة . قال ثعلب : والأجود أن يحمل الكلام على وجه واحد فرد عليه الزجاج بأن كلا جيد ، قال الله تعالى : ومن يقنت منكن لله ورسوله ويعمل صالحاً ، وقرىء وتعمل صالحاً . وقال عز وجل ، ومنهم من يستمعون إليك ، ذهب إلى المعنى ، ثم قال : « ومنهم من ينظر إليك » ذهب إلى اللفظ وليس لقائل أن يقول : لو حمل الكلام على وجه واحد فى الاثنين كان أجود ، لأن كلا جيد .

أما الفراء فكان يقول : إن سيبويه لا يدري ما التعجب ، ولقد رجعت

إلى الكتاب فلم أجد سيبويه قد استوفى حقا أبواب التعجب وفروعه المختلفة

وأما المبرد فيقول الأستاذ الرافعى : إنه أفرد كتابا فى القدح فى كتاب سيبويه والغض منه ، ولم أطلع على هذا الكتاب الذى وضعه المبرد ، ولم أعرف النقط التى خالفه فيها ولكن ياقوت فى معجمه ذكر أن عبيد الله القصرى ألف كتاباً سماه الانتصار لسيبويه على أبى العباس فى كتاب الغلط .

وذكر الأستاذ جورجى زيدان أن أبا بكر الزبيدى ألف كتاباً سماه كتاب الاستدراك على كتاب سيبويه انتقد فيه مواد هامة ، وطبع فى روما سنة ١٨٩٠ بعناية الأستاذ جويدى المستشرق الايطالى .

رأينا فى الكتاب .

١ - الكتاب فى نظرنا مرجع من المراجع نعود إليه عندما نؤلف كتابا فى القواعد العربية .

٢ - وهو صورة لآخر ما وصل إليه التقدم العلمى فى النحو فى أواخر القرن الثانى الهجرى ، لأن الكتاب كما قلنا - ثمرة لهذه الجهود المتصلة فى تلك المادة منذ بدأها أبو الأسود .

٣ - وهو صورة أيضا لما كانت عليه دراسة النحو فى ذلك الحين من التعليل والقياس والاستنباط والتفريع واستيعاب الفروض .

٤ - وفى رأيى كذلك أن كتاب سيبويه كان الكتاب الأول والأخير فى النحو ، فالكتاب سجل لقواعد النحو ، وقف العلماء عندها ، ولم يزيدوا عليها ، وكل من جاء بعده جعل الكتاب أساس دراسته ووقف عند حد الشرح أو الاختصار ، ولم يزد المتأخرون على كتاب سيبويه إلا أن وضعوا الاصطلاحات التى كانت تنقصه . كما ذكرنا - وإلا أن رتبوا أبواب القواعد ترتيبا جديداً ، فالطبقة التى تلت كتاب سيبويه كانت طبقة الشرح والتكميل والتنظيم ، ثم جاءت من بعدهم طبقة أخرى ، اكتفت بذكر القواعد من غير أن تقرنها بعللها وأسبابها وظل الأمر يتدرج حتى انتهى بهذه المختصرات

أو المتون التى احتاجت إلى شروح مطولة ، ثم احتاجت الشروح إلى حواش وتقريرات وجدت مصدرها فى كتاب سيبويه .

٥ — نقرأ كتاب سيبويه على أنه مرجع ومصدر ، أما أن نجعله أساس الدراسة مثلا فى عصرنا الحديث فلا ، لأننا بذلك نلقى تطور التأليف النحوى وما ناله هذا التأليف من التنظيم والتبويب منذ عصر سيبويه إلى وقتنا الحاضر .

ويا حبذا لو تضافرت الجهود ، واجتمعت القوى على إخراج كتاب فيه القواعد النحوية المبعثرة بمجموعة منظمة ، واستخرجنا من كتب السالفين ما فيها من جواهر مستورة ، ووضعنا ذلك كله فى أسلوب جميل تزينه شواهد ممتازة ، ليكون عدة العالم فى عصرنا الحديث . إن كتابا كهذا يكون له من الأثر ما كان لكتاب سيبويه طوال هذه القرون المتعاقبة والله يهدى إلى سواء السبيل .

مراجع البحث

١ — كتاب سيبويه

٢ — أخبار النحويين البصريين للسيرافى .

٣ — الفهرست لابن النديم .

٤ — تاريخ بغداد للخطيب البغدادى .

٥ — نزهة الألباء لابن الانبارى .

٦ — معجم الأدباء لياقوت .

٧ — وفيات الأعيان لابن خلكان .

٨ — بغية الوعاة للسيوطى .

٩ — كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى .

١٠ — تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان .

١١ — تاريخ آداب العرب للرافعى .

١٢ — تاريخ اللغة والآداب فى العصر العباسى للسكندرى .

١٣ — ضحى الاسلام لأحمد أمين .

١٤ — الأعلام لخير الدين الزركلى .

١٥ — إعجام الأعلام لمحمد مصطفى .

١٦ — كشف الظنون لحاج خليفة .

١٧ — La Littérature Arabe. Par Huart.

١٨ — Anthologie Gramaticale Arabe. Par S. De Sacy

١٩ — كتاب الاقتراح للسيوطى .